

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾

[للمؤمنون: 81 - 82]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

لا شُبْهَةَ فِي
إِنْكَارِ الْبَعْثِ إِلَّا
التَّشَبُّثُ بِعَدَمِ
إِعْمَالِ الْعَقْلِ

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ مَنكَرُونَ لِلْبَعْثِ وَأَنَّهُمْ مَقِيمُونَ عَلَى
إِنْكَارِهِمْ مَعَ ظُهُورِ الْآيَاتِ وَالِدَّلَائِلِ بَيِّنٍ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا شُبْهَةَ لَهُمْ فِي
إِنْكَارِ الْبَعْثِ إِلَّا التَّشَبُّثُ بِحَبْلِ التَّقْلِيدِ الْمَبْنِيِّ عَلَى مُجَرَّدِ الْاسْتِبْعَادِ (1).
وَأَيْضًا لَمَّا أَوْضَحَ اللَّهُ ﷻ الْقَوْلَ فِي دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ عَقَبَهُ بِذِكْرِ الْمَعَادِ (2)،
لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ مِنْ أَصُولِ الْإِيمَانِ الَّتِي لَا يَجُوزُ إِنْكَارُهَا.

✽ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي:

السَّابِقُونَ
وَالْآخِرُونَ
مُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ

يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: إِنَّ الْكُفَّارَ يَسْتَبْعِدُونَ وَقَوْعَ الْبَعْثِ بَعْدَ صَيُورِهِمْ
إِلَى الْبَلَى، كَمَا هُوَ نَهْجٌ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ (3)، إِذْ كَانُوا
يَرُدُّونَ هَذِهِ الشُّبْهَةَ الْوَاهِيَةَ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: كَيْفَ يُبْعَثُ الْأَمْوَاتُ بَعْدَ أَنْ
يَصِيرُوا عِظَامًا وَرَفَاتًا وَتُرَابًا.

✽ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَدَاعِيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

التَّقْلِيدُ وَالتَّمَاتِبَةُ
مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ
سَبَبٌ فِي اعْتِقَادِ
الْبَاطِلِ

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَأَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ عَدَمُ إِعْمَالِ
عُقُولِهِمْ فِي الْآيَاتِ وَالْأَدَلَّةِ الْوَاضِحَةِ الْبَاهِرَةِ جَاءَتْ الْآيَةُ عَلَى طَرِيقِ
الْفَصْلِ لِتَكُونُ تَأْكِيدًا لِلإِنْكَارِ عَلَى عَدَمِ اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ، وَتَقْرِيرًا
لَهُ بِسَبَبِ تَقْلِيدِهِمْ لِمَنْ سَبَقَهُمْ وَمَتَابِعَتِهِمْ لَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ،
كَمَا أَنَّ مَجِيءَ ﴿بَلْ﴾ فِي صَدْرِ الْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْإِضْرَابِ كَمَا يَأْتِي لَا
يُنَاسِبُهُ سِوَى الْفَصْلِ فِي الْآيَةِ.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 585.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 289.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 238.

دلالة ﴿بَل﴾:

بل للإضراب الإبطالي، إبطالاً لِكُونِهِمْ يَعْقِلُونَ وتقريراً للاستفهام الإنكاري في قوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ولما أبطل كونهم يعقلون أفاد بلازمه إثبات إنكارهم البعث، لأنه أنكر عليهم عدم إعمال عقولهم لإنكارهم البعث، أو يقال: إنه لما كان ذكر دلائل التوحيد والنعم الظاهرة يقتضي الاعتبار والإنابة والخضوع، أضرب عن ذلك، ليفيد أنهم لم يفعلوا ذلك، والإضراب عنه يستلزم فعل نقيضه وهو إنكارهم البعث واستمرارهم على الكفر والشرك بالله تعالى⁽¹⁾.

ظهور دلائل
التوحيد تستلزم
الاعتبار والإنابة
والخضوع لله
رب العالمين

دلالة الإضراب في ﴿بَل﴾:

لما كان حرف الإضراب ﴿بَل﴾ يقتضي مضرباً عنه كان الكلام من قبيل الإضراب على مضمرٍ يقتضيه المقام ويدل عليه السياق، ولما كانت ﴿بَل﴾ تقتضي أن يكون المضرب عنه منفياً كان التقدير: (فلم يعقلوا أو فلم يعتبروا أو فلم ينظروا في الآيات بل قالوا)⁽²⁾، فيكون حذف المضرب عنه لاستغراق المعاني المذكورة، ونكتة حذف المضرب عنه بيان أن عاداتهم وحالهم هو عدم الاعتبار وعدم النظر في الآيات، فلا فائدة من التصريح به مع العلم به من قرينة السياق.

حذف المعطوف
عليه لاستغراق
المعنى وعمومه

مناسبة مجيء قوله ﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾:

لما كانت ﴿بَل﴾ التي للإبطال تفيد إبطال المعنى الذي قبلها والرد عليه بما بعدها بين السبب الذي بعثهم على إنكار البعث وسبب نفي العقل عنهم، وهو تقليد الآباء ومتابعة الأولين من غير هدى، والمعنى: أنهم لا يعقلون الأدلة لكنهم يتبعون أقوال آبائهم⁽³⁾،

توبيخ من يتبع
من سبقه من
غير دليل سوى
السبق

(1) ابن عجيبة، تفسير ابن عجيبة: 213/3.

(2) أبو حيان، البحر المحیط: 580/7، والعلمي، فتح الرحمن: 485/4، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 147/6.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 106/18.

وفيه توبيخ لمن يقول قولاً من غير هدى، ولمن يتبع من سبقه من غير دليل سوى السبق.

بديع الإدماج في الآية:

ليس للكافرين
حجة غير تقليد
الأولين

لما كان السياق في بيان إشراكهم بالله تعالى وذكر دلائل التوحيد وتفرّد الله تعالى بالعبودية أدمج في قوله ﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ أصلاً آخر من أصول الشرك، وهو إنكار البعث بعد الموت وإحالاته⁽¹⁾، فأنكر عليهم في جملة واحدة أمرين مع بيان سبب إنكارهم البعث ونفي العقل عنهم كما تقدّم.

بلاغة الكناية في الآية:

التقليد في
الباطل لا يكون
عذراً عند الله
تعالى

لما أخبر الله تعالى عن قولهم الذي قالوه وعن تقليدهم الأعمى لمن سبقهم مع وضوح الآيات والحجج أفاد بلازمه أنهم لم يعتبروا بآياته ولم يتفكروا فيها ولم يتدبروا في الحجج الدالة على قدرته على فعل كل ما يشاء ولم يعقلوا الأدلة مع وضوحها ولم يشكروا النعم الظاهرة.

مناسبة الالتفات في الآية:

التعجب من
تفاهة عقول
الكافرين
لإنكارهم البعث
وإحالاته

لما كانت الآيات السابقة على وجه خطاب الكافرين وجرت هذه الآية على وجه الغيبة في قوله ﴿قَالُوا﴾ كان الكلام على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ومناسبتة هو أنه في الخطاب كان على التقرير والتوبيخ والتّهديد، وهو المناسب لشدة التخويف، فلما حكى ضلالتهم ناسبه مجيء الكلام على وجه الغيبة لما في الغيبة من معنى الإبعاد والغضب⁽²⁾، كما أن في الالتفات تنبيهاً للسامعين وليكونوا أكثر إيقاظاً وإصغاءً إلى بيان سبب إشراكهم بالله وإنكارهم البعث، ولما كان السبب دالاً على تفاهة عقولهم اقتضى التعجب من قولهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 106 / 18.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 174 / 13، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 106 / 18.

دلالة الفعل ﴿قَالُوا﴾:

الْقَوْلُ هُنَا يَرَادُ بِهِ اللَّفْظُ الْمُنَاطِقُ لِلْإِعْتِقَادِ، لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلَامِ مُطَابَقَةُ إِعْتِقَادِ قَائِلِهِ، فَالْمَعْنَى: بَلْ اعْتَقَدُوا مِثْلَ مَا اعْتَقَدَ الْأَوَّلُونَ⁽¹⁾، أَوْ يَكُونُ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنَ الْحُجَجِ فِي إِنْكَارِ الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ غَيْرِ الْأَقْوَالِ بِأَفْوَاهِهِمْ مَعَ اسْتِيقَانِ أَنْفُسِهِمْ بِالْحَقِّ الْمُبِينِ.

القول هنا
بمعنى اللفظ
المطابق للاعتقاد

نكتة التعبير بلفظ القول:

نَكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْقَوْلِ فِي ﴿قَالُوا﴾ دُونَ الظَّنِّ أَوْ الْإِعْتِقَادِ الْإِشْعَارُ بِقُبْحِ فَعْلِهِمْ وَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَكْتَفُونَ بِإِعْتِقَادِهِمُ الْبَاطِلَ بَلْ كَانُوا يَفْصَحُونَ عَنْهُ وَيَتَكَلَّمُونَ بِهِ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَرْغَبُونَ فِي تَرْوِيجِ بَاطِلِهِمْ وَنَشْرِهِ مِنْ دُونَ اسْتِحْيَاءِ مِنْهُمْ، عِنَادًا وَتَكَبُّرًا.

ترويج الباطل
ونشره من
رغبات الكافرين

سبب إثارة التعبير بالضمير في قوله ﴿قَالُوا﴾:

جَاءَ التَّعْبِيرُ بِالضَّمِيرِ دُونَ الْأَسْمِ الظَّاهِرِ لِيَكُونَ الْكَلَامُ عَلَى مَقْتَضَى الظَّاهِرِ، فَيَعُودُ الضَّمِيرُ فِي ﴿قَالُوا﴾ إِلَى الْمَخَاطَبِينَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بِمَا اتَّصَفُوا بِهِ، أَيْ بَلْ قَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَمْ يَشْكُرُوا وَأَنكَرُوا الْبَيْعُثَ وَلَمْ يَعْقِلُوا، فَيَكُونُ عَوْدُ الضَّمِيرِ دَالًّا عَلَى سَفَاهَةِ قَوْلِهِمْ وَبَطْلَانِهِ، أَيْ إِنَّ التَّعْبِيرَ بِالضَّمِيرِ تَضَمَّنَ الدَّلِيلَ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِهِمْ، وَهَذَا مِنْ بَرَاةِ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ وَبِلَاغَتِهِ.

عبر بالضمير
دون الاسم
الظاهر
للاستدلال به
على بطلان
قولهم

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿قَالُوا﴾ رَاجِعٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ فِي إِنْكَارِ الْبَيْعِثِ⁽²⁾، لِيَدُلَّ عَلَى الْعُمُومِ، فَيَفِيدُ الْإِنْكَارَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَقُولُ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ.

نكتة التعبير بالمثل:

عَبَّرَ بِالْمِثْلِ فِي قَوْلِهِ ﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَكُونُ

الكافرون سلخوا
في التكذيب
مسلك سلفهم،
وأسرفوا في
العناد مثل
سرفهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 107 / 18.

(2) أبو حيان، البحر المحیط: 580 / 7.

مثل شيءٍ في الحقيقة إلا إذا أشبهه من جميع الوجوه لذاته⁽¹⁾، ليفيد أن قولهم مثل قول الأولين، فلم يخالفوه ولو في جزءٍ منه، إشعاراً بتشبههم بقول الأولين بذاته وجميع أوصافه أي في كيفية القول وكميته وقدره، ففيه تقريرٌ لإنكارِ أعمالهم عقولهم وتسفيهاها حتى إنهم لم يغيروا في قولهم أي وصف من أوصاف قول الأولين، والمعنى أنهم سلكوا في التكذيب مسلك سلفهم، وأسرفوا في العناد مثل سرفهم⁽²⁾.

بلادة التعبير بالموصل وصلته:

الكافرون لم
يأتوا بجديد في
إنكار البعث

عبّر بالاسم الموصل ﴿مَا﴾ المفيد للإبهام والعموم في قوله ﴿مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾؛ للإشعار بأنهم تابعوا أقوال الأولين كلها، ولما كانت صلة الموصل ﴿قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ معلومة الانتساب إلى مشار إليه أفادت أن قول آبائهم الأولين ومن دان بدينهم من المشركين معلوم عند المخاطبين معروف بينهم، فلم يأتوا بأمرٍ جديد.

فائدة حذف العائد:

العائد في قوله ﴿مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ محذوف، والتقدير: (مثل ما قاله الأولون)، ونكتة الحذف مناسبتة للإبهام والعموم الذي في ﴿مَا﴾، مع ظهور معناه.

نكتة التعبير بلفظ ﴿الْأَوَّلُونَ﴾:

الإنكار على من
لم يستعمل
عقله ويقلّد
بغير بينة

لم يقل: (مثل ما قال آبائهم)، ليفيد اللفظ العموم في الفاعل، بمعنى مثل ما قال آبائهم ومن دان بدينهم من الأولين، كما أن في التعبير بـ ﴿الْأَوَّلُونَ﴾ إشعاراً بأنهم كانوا يعتقدون امتناع مخالفتهم لكونهم سابقين لهم على جهة أنهم الأولون، فهم لا يخالفون، كما أن تعليق قولهم على قول الأولين يؤذن بتوبيخهم على عدم استعمال عقولهم ومصادرتهم لها من أجل أن يقولوا مثل قول الأولين واعتقادهم.

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 156.

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 585.

مناسبة الفصل:

جاءت هذه الآية ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا﴾ مفصولة عن التي قبلها، وهي قوله تعالى ﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ لأنَّ بين الجملتين كمال الاتصال، فالجمله الثانية بدل بعض أو بدل الكل من الكل أو عطف بيان من الجمله الأولى لتفصيل الإجمال في المماثلة الوارد في الجمله الأولى، ومناسبة مجيء الجمله بدلاً هو أنَّه بالبدل والمبدل منه يحصل كمال الإيضاح والبيان للقول الذي قالوه مع بيان سبب قولهم وتوبيخهم على اتِّباعهم الأولين، كما أنَّه عبَّرَ بالبدل لأنَّ المقام يقتضي الاعتناء بشأن مضمون البدل وتفصيله، لنكتة تفضيع قولهم وتعجيب المخاطب منه قصدًا لبيان غرابته وكونه أهلاً لأنَّ ينكر إن ادَّعى نفيه، ويحتمل الفصل أن يكون على طريق الاستئناف البياني، فكأنَّ سائلاً سأل: وماذا قال الأولون فقال بيانا له ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا﴾⁽¹⁾.

تواطؤ الكافرين
وأسلافهم على
إنكار البعث

دلالة ضمير الجماعة في قوله ﴿قَالُوا﴾:

إن كان الضمير في ﴿قَالُوا﴾ الثاني عائداً إلى ما عادَ إليه ضميرُ ﴿قَالُوا﴾ الأوَّل كانت الجمله الثانية بدلاً من الجمله الأولى، وإن كان الضميرُ عائداً إلى ﴿الْأَوَّلُونَ﴾ كانت الجمله استئنافاً بيانياً، والمعنى واحد على الوجهين.

بلادة الاستفهام المجازي:

جاء الاستفهام في قوله ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا﴾ على طريق المجاز، فالغرض منه إنكارُ البعث بعد الموت والكونِ تراباً وعظاماً، ويتولَّد من الإنكار استبعاد البعث وإحالته، ولما كان الإضراب في ﴿بَلْ﴾ متوجَّهاً إلى البدل والمبدل منه أفاد أنَّ من يقول هذا القول لا يعقل ولا يتدبَّر الآيات والحجج الباهرة.

الغرض من
الاستفهام
الإنكار المتولَّد
منه الاستبعاد

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 267، والعصام الإسفراييني، الأطول: 2/ 20، والدسوقي، حاشية على شرح المختصر: 2/ 491، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 107.

من قلة عقول
الكافرين
يقانهم بالموت
وإنكارهم البعث
بعده

فائدة التعبير بالشرط في قوله ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾:

عبّر بأداة الشرط (إذا) للإيذان بأن موتهم وكونهم ترابا وعظاما مقطوع به عندهم، فجاء على طريق الجزم بالوقوع كما هو الظاهر، لأنه مما لا ينكر ولا يشك فيه، وأسلوب الشرط في قول الكافرين يدل على إنكارهم للبعث مرة أخرى؛ إذ أحالوا البعث في جواب الشرط مستدلين على زعمهم الباطل بما ذكروه في جملة الشرط من فنائهم وصيرورتهم ترابا وعظاما.

دلالة صيغة الماضي في قوله ﴿مِتْنَا﴾ و﴿وَكُنَّا﴾:

جاء الفعلان ﴿مِتْنَا﴾ و﴿وَكُنَّا﴾ بصيغة الماضي على ما هو مقتضى الظاهر، لإفادة (إذا) القطع بوقوع الشرط، فناسب إيراد الفعل الماضي في الموضعين لكونه مقطوعا به في اعتقادهم وفي الواقع.

فائدة الجمع بين الموت والتراب والعظام:

الجمع بين ذكر الموت والكون ترابا وعظاما لأمرين؛ أحدهما قصد تقوية الإنكار بتفطيع أخبار القرآن بوقوع البعث، أي الإحياء بعد ذلك التلاشي القوي الذي يكون بعد الموت، قصدا للطعن في القرآن وتكذيب الرسول ﷺ⁽¹⁾، والثاني قصد تقوية استبعاد البعث والحياة الأخرى يوم القيامة، وموجب الاستبعاد عندهم هو حصول أحوال تنافي أنهم مبعوثون بالهيكل الإنساني بحسب قُصور عقولهم، وهي حال الموت المنافي للحياة، وحال الكون ترابا وعظاما المنافي لإقامة الهيكل الإنساني بعد ذلك⁽²⁾.

سر تقديم التراب على العظام:

قدّم ذكر التراب على العظام التي يقصد بها العظام البالية المجردة من اللحوم والأعصاب مع أن الكون ترابا يكون بعد الكون

محاولات
الكافرين
بأنسة
في الطعن في
حقائق القرآن

لو تأمل
الكافرون أن
أصلهم من تراب
لما أنكروا البعث
بعد كونهم ترابا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 107 / 18.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 53 / 18.

عظامًا؛ لَأَنَّهُ أَدْخَلَ فِي التَّكْذِيبِ بِالْبَعْثِ وَالْحَيَاةِ الْآخِرَى، وَلِعِرَاقَتِهِ فِي الْاِسْتِبْعَادِ وَانْقِلَابِهِ مِنَ الْأَجْزَاءِ الْبَادِيَةِ؛ لِبَعْدِ التُّرَابِ عَنْ صَلَاتِهِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، وَأَمَّا الْعِظَامُ فَإِنَّهَا وَإِنْ نُخِرَتْ وَتَفْتَتَتْ فَإِنَّ فِيهَا آثَارًا مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ الْمَوْتِ، فَبَدَأَ بِالْأَبْعَدِ فَالْأَبْعَدُ، فَكَوْنُهُمْ تَرَابًا أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَبْعَثُوا مِنْ كَوْنِهِمْ عِظَامًا، كَمَا أَنَّ فِي ذِكْرِ التُّرَابِ تَجْبِيًّا لِإِنْكَارِهِمْ وَاسْتِبْعَادِهِمْ، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَأَمَّلُوا أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ أَيْضًا تَرَابًا فَخَلَقُوا⁽¹⁾.

دلالة التَّنْكِيرِ فِي «تُرَابًا وَعِظَمًا»:

أَفَادَ التَّنْكِيرُ فِي «تُرَابًا وَعِظَمًا» التَّحْقِيرَ الْمُبَرَّرَ عِنْدَهُمْ لِإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَاسْتِبْعَادِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْبَعْثُ وَالْإِحْيَاءُ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ أَشْيَاءٍ حَقِيرَةٍ مَنَافِيَةٍ لِحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِ، فَبَيْنَ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِ الْجَسَدِيَّةِ وَالْهَيْكَلِيَّةِ مِنَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ وَالتَّكْوِينِ وَبَيْنَ التُّرَابِ وَالْعِظَامِ بَوْنٌ وَاسِعٌ، فَلَا يَكُونُ هَذَا مِنْ ذَاكَ فِي زَعْمِهِمُ الْكَاذِبِ.

تَوْجِيهِ الْمِثَابَةِ اللفظي:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «أَعْدَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفَاتًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾» [الإسراء: 49]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ «قَالُوا أَعْدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ»، وَقَالَ «أَعْدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا أَعْنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾» [الصافات: 53]، فَمَا هُوَ سَبَبُ ذِكْرِ الرِّفَاتِ فِي آيَةِ الْإِسْرَاءِ، وَالتُّرَابِ فِي آيَةِ الْمُؤْمِنُونَ وَالصَّافَاتِ وَغَيْرِهِمَا؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ التُّرَابَ وَالْعِظَامَ أَدْلُ عَلَى الْبَلَى مِنَ الْعِظَامِ وَالرِّفَاتِ، فَالرِّفَاتُ هُوَ مَا تَكَسَّرَ وَتَفَرَّقَ مِنَ الْعِظَامِ، فَهُوَ حَطَامُ الْعِظَمِ الْمَتَكَسِّرِ، وَهُوَ الْحَالَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْعِظَمُ قَبْلَ التُّرَابِ، فَإِذَا بَلَى الرِّفَاتُ صَارَ تَرَابًا، فَبَعْثُ التُّرَابِ وَالْعِظَامِ أَشَدُّ إِنْكَارًا وَاسْتِبْعَادًا عِنْدَ الْكَافِرِينَ

الخالق من عدم
قادر على البعث
من عدم

ذكر التُّرَابِ
والعظام في
سياق إنكار
البعث وذكر
العظام والرِّفَاتِ
في سياق ذكر
الموت

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 93، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 134، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 170، والطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 9.

من بعث العظام والرفات، وأمّا في آية سورة الإسراء فلم يأت في سياقها التصريح بإنكارهم البعث، ولم يذكر من قولهم في الإنكار سوى تين الآيتين، فلم يقولوا بعدها ولا قبلها شيئاً يتعلّق بإنكار البعث واستبعاده، وأمّا إذا ذكر التراب والعظام كما في آية المؤمنون فإنه يذكر من إنكارهم واستبعادهم البعث ما لم يذكره في العظام والرفات، كما في قوله تعالى ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: 35 - 37]، ومثله في سورة الصافات ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١﴾ يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمُذِنُونَ ٥٣﴾ [الصافات: 51 - 53]، ويدلُّك على هذا أيضاً أنه حيث ذكر التراب والعظام أضافوا إلى ذلك ذكر الموت فيقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا﴾ [الصافات: 53] وذلك للزيادة في العجب والاستبعاد، فالمت لا يحيا وإن كان حديث الموت، فكيف إذا أصبح تراباً وعظاماً؟! ولم يذكر مثل ذلك مع العظام والرفات، فذكر الموت مع التراب والعظام فيه جانبان: جانب الزيادة في العجب والاستبعاد، وجانب الإفاضة والتوسع في دواعي الاستبعاد والإنكار، مما يدعو إلى الإفاضة في ذكر الإنكار والعجب، بخلاف ذكر العظام والرفات وعدم ذكر الموت فإنه أوجز في الكلام، وأوجز في ذكر العجب والاستبعاد، والخلاصة أنه لما صرَّح بالإنكار ذكر ما يناسبه وهو التراب ولما لم يصرَّح بالإنكار ذكر ما يناسبه وهو الرفات⁽¹⁾.

بلغة الاستفهام المجازي وتكريره:

الاستفهام في قوله ﴿أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ مجازيٌّ كذلك، على معنى إنكار وقوع البعث واستبعاده، فيكون تأكيداً للأوّل واستبعاداً بعد

جحود الكافرين
ليس مثله
جحود

(1) فاضل السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم: 1/ 117 - 118.

استبعاد، ونكتة تكريره النص على موضع إنكارهم، للإيدان بأنهم مغرقون في إنكار البعث واستبعاده.

سبب إثارة تتابع التأكيد (إن) واللام:

عبر بحرف التوكيد (إن) واللام في قوله ﴿أَنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ المؤكدة لأن المقصود حكاية الكافرين لدعوى البعث التي يدعيها الرسول ﷺ بتحقيق وتوكيد، مع كونها شديدة الاستحالة، للإشعار بأنهم يستفزعون ما يدعيه الرسول ﷺ باعتبار أنه لا يمكن أن يقع، ففي حكاية توكيد مدعيها زيادة في تفضيع الدعوى في وهمهم⁽¹⁾، فهم لا يكتفون باستحالة البعث بل يزدون على الأمر تفضيع تأكيد الرسول ﷺ دعوى البعث والإعادة إلى الحياة يوم القيامة.

توجيه التشابه اللفظي:

قال الله تعالى ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وقال فيما بعد: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات: 51-53]، للسائل أن يسأل عن قوله أولاً: ﴿أَنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وثانياً: ﴿أَنَا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: 53] لم اختلفا مع أن مرادهم في الموضوعين إنكار البعث بعد الموت؟ والجواب: أن آية سورة المؤمنون جاءت على الأصل في إنكارهم البعث، فلم يتقدمها شيء يوجب عدولهم عن التعبير عن معتقداتهم في إنكار الإحياء بعد الموت فورد اللفظ على ما يطابق معتقدتهم، فهو حكاية كلام الكافرين المنكرين للبعث، وأما آية الصافات، ففيها قول أحد الفريقين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاء، وقد تمهد قبلها ذكر الجزاء الأخروي وذكر السؤال، في قوله ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: 24] وقوله تعالى بعد ﴿وَمَا تَحْزُونُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصافات: 39]، وقوله

استفضاع
الكافرين
ما يحكيه رسول
الله ﷺ
في التكذيب

مجيء كل لفظ
مناسباً لسياقه
وسباقه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 107/18.

عند سؤالهم في الآخرة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) [الصفات: 27]، وقول الكافر عند مباشرة العذاب: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١) ﴿يَقُولُ﴾ [الصفات: 51 - 52]، فأخبر عنه سبحانه أنه كان يقول لقريته في دنياه: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ﴾ (٥٢) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (٥٣) [الصفات: 52 - 53] وفي طي قولهم: ﴿أَءَنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (٥٣) [الصفات: 53] إنكار للبعث لإنكارهم ما ينبني عليه ويترتب بعده من الجزاء، وقد تقدم ذكر الجزاء فناسبه ذكر تعجبهم منكربين وقوعه، ولم يكن ليحسن وقوع ﴿لَمَدِينُونَ﴾ (٥٣) [الصفات: 53] في آية المؤمنون لأنه سيكون غير مفصح عن إنكار الكافرين البعث ولا ورد قبله ما يستدعيه، فجاء كلُّ على ما يجب ويناسبه⁽¹⁾.

توجيه القراءات القرآنية وبلاغتها:

قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى صَوَرَةِ الْخَبَرِ، أَيِ بِالْإِخْبَارِ فِي الْأَوَّلِ وَالِاسْتِفْهَامِ فِي الثَّانِي فِي قَوْلِهِ ﴿أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿فَيُكْتَفَى بِالِاسْتِفْهَامِ فِي الْجَوَابِ عَنِ الشَّرْطِ، وَيَكُونُ دَالًّا عَلَيْهِ، وَقَرَأَ نَافِعٌ وَالْكَسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ بِالِاسْتِفْهَامِ فِي الْأَوَّلِ، وَالْإِخْبَارِ فِي الثَّانِي، وَوُجُودُ هَمْزَةِ الْإِسْتِفْهَامِ دَاخِلَةً عَلَى الشَّرْطِ كَافٍ فِي إِفَادَةِ الْإِسْتِفْهَامِ عَنْ جَوَابِهِ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَحَمْزَةً بِالِاسْتِفْهَامِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، أَيِ فِي قَوْلِهِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ وَقَوْلِهِ ﴿أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، لِيَكُونَ الْإِسْتِفْهَامُ فِي الْجَوَابِ تَأَكِيدًا لِلِاسْتِفْهَامِ فِي الشَّرْطِ⁽²⁾.

❖ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الْمِثْلُ وَالشَّيْبَةُ وَالنَّدُّ وَالْمَسَاوِي وَالشَّكْلُ:

الفرق بينها أَنَّ الشَّيْءَ يُشَبَّهُ بِالشَّيْءِ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ لَا يَكُونُ مِثْلَهُ

الثلل أعمُّ الألفاظ
للمشابهة
والشَّيْبَةُ يقال
فيما يشارك في
الكيفيّة فقط

(1) الكرمانى، أسرار التكرار، ص: 212، والغرناطى، ملاك التأويل: 2 / 410.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1 / 373.

في الحقيقة إلا إذا أشبهه من جميع الوجوه لذاته، ويعرف معنى المثل بمعرفة معنى ما يقاربه وما يضاده، فالمثل أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، والنّد يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط، والمساوي يقال فيما يشارك في الكمية فقط، والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله تعالى نفي التشبيه من كل وجه خص المثل بالذكر فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]⁽¹⁾، فالمثل: شيء يسد مسد غيره في الإدراك؛ حتى لو شوه لم يفرق بينه وبينه، كما لا يفرق بين سوادين يسد كل واحد منهما مسد الآخر في الرؤية، فلما قال ﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ أفاد أن قول كفار مكة: مثل قول الأولين؛ في إنكار البعث بعد الموت بحيث لو سمع قول الأولين لم يفرق بينه وبين قول كفار قريش⁽²⁾.

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 156، والراغب، المفردات: (مثل).

(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 91.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-78-5

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»